كثرة البطولة أو ندرتها ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

لخص العالم الفاضل الأستاذ أحمد أمين ما بيننا من خلاف على مسألة النبوغ والبطولة فى ختام مقاله فقال :

« عصرنا الحاضر طابعه طابع المألوف والمعتاد لا طابع النابغة والبطل ، وإن كان مألوفنا ومعتادنا أرقى من نابغة القرون الماضية وبطل القرون الماضية

« إن كان هذا - يا أخى - هو الذى أردتُ فأظن أنه لا يرد على بمزايا العصر الحاضر ، وعلم العصر الحاضر ، وفن العصر الحاضر . وإذا كان النبوغ فى السبق وكانت المقارنة بين عصرين بقياس مسافتى البعد ، فأرجو أن نكون على وفاق فيما ذكرتَ وذكرتُ »

وموضع الوفاق بين ماقال الأستاذ وما قلت أننا لا ينبغى أن نقيس علم السابقين إلى علم المحدثين ، فليست المقارنة بين مقدار ما نعلم ومقدار ما يعلمون ، وإنما المقارنة بين الملكات فى الزمن الماضى ، والملكات فى الزمن الحاضر ، وهذا ما نختلف عليه ؛ إذ لا موجب عندى لأن تكون ملكات النابغين فى عصرنا أقل مما كانت فى عصر الأقدمين

إن النبوغ صفة فى أصحابها وليست صفة فى غيرهم ، فاذا تعلم غير النابغين أو لم يتعلموا فصفة النبوغ باقية فى أصحابها سواء ظهروا بين المتعلمين أو ظهروا بين الجهلاء . وكل ماهنالك من فرق أن النابغة الذى يظهر بين المتعلمين أنبغ من زميله الذى يظهر بين الجهلاء ، وتلك شهادة للنابغين فى العصر الحديث تضاف إلى ميزان الحسنات والمرجحات

ومسافة البعد بين النابغ القديم ومعاصريه ، هى مسافة البعد بين نابغينا وأبناء عصرنا إذا نحن تجاوزنا مسألة التعليم ووفرة المتعلمين ، لأن النبوغ ملكة مطبوعة ، والمسافة بين المطبوعين وغير المطبوعين اليوم هى هى المسافة بين الفريقين قبل مائة عام أو ألف عام . فليس فضل إديسون فى زماننا أنه يعرف فى علم الضوء وعلم الصوت ما ليس يعرفه أبناء عصره ، ولكنما فضله أنه نابغ وهم غير نابغين ، فأفاد بالعلم اليسير مالم يفده الآخرون بالعلم الغزير ، وظلت المسافة بينهم وبينه فى النبوغ كالمسافة بين ارخميد ومن عاصروه من غير النابغين ، وإن اختلف العصران فى شيوع العلم وكثرة المتعلمين

يقول الأستاذ الفاضل : « مقياس النابغة فى نظرى أن يفوق أهل زمانه ويسبقهم فى فنه أو علمه أو أدبه حتى لا يدركوه إلا بعد أزمان ، وعلى مقدار هذا السبق يكون النبوغ . فسيبويه نابغة فى النحو ، لأنه رأى من قواعده ماعجز أهل زمانه عن النظر إليه »

وأنا أقول كما يقول الأستاذ : إن النابغة يفوق أهل زمانه فى معرض من معارض العلوم والفنون ، ولكنى لا أقول إن عصرنا لم ينجب أمثال سيبويه ، بل أقول إن سيبويه لو عاش فى عصرنا لما فاق نوابغه الأحياء ، وإن نوابغنا الأحياء لو عاشوا فى عصره لما قصروا عن شأوه ، لأن الملكات التى تعرف وحدة الأسماء والأفعال بين لغات أوربا ولغات آسيا لا تقل عن الملكات التى تعرف الوحدة أو الاختلاف بين قبيلة وقبيلة من أبناء البادية ، لا لأن الأمر يرجع إلى كثرة المتعلمين عندنا وقلة المتعلمين قبل نيف وعشرة قرون

وعندى أن المعاصرين ينظرون إلى نوابغهم وأبطالهم كما كان الأقدمون ينظرون إلى النوابغ والأبطال فى عصورهم إلا من كان منهم موسوماً بسمة الدين أو محوطاً بهالة الايمان . فالاستاذ يقول إن نابليون ظهر « فاستعبد الناس وأجرى الدماء أنهاراً وقلب الممالك رأساً على عقب ودوخ الدنيا فكان نابغة حقا فى ناحية . وبيننا الآن فى عصرنا من هم أعلم منه بفنون الحرب ومن هم أقوى منه إرادة وأبعد نظرا ، ولكن من الصعب أن نسميهم نوابغ ، لأن الناس ليسوا مغفلين كما كانوا أيام نابليون ، ولأنه وحده كان هو القاهر المريد ومن حوله كانوا المنفذين المأمورين ، فظهر ولم يظهروا ، ونبغ ولم ينبغ بجانبه إلا قليل »

فليت الأمر كما يبشرنا الأستاذ من هذه الناحية ؛ إنما الواقع أن أحداً من أبناء القرن الثانى عشر لم ينادِ بأن الأمبراطور معصوم كما ينادى الفاشيون من أبناء القرن العشرين بعصمة « الدوتشى » وطاعته بغير تفكير ولا امتعاض

والواقع أن نابليون لم يجسر يوماً على صنيع كالذى صنعه « الفوهرر » قبل ثلاث سنوات من « تطهير » البلاد بلا محاكمة ولا سؤال

وقد كان «لفين» ينحى على القديسين ، ولا يعترف للعظماء بأثر فى توجيه التاريخ إلى الأثر الذى يعترف به الشيوعيون ، فلما مات أقاموا له ضريحاً لم يحلم به كاهن ولا راهب فى عهد القياصرة أو عهد الكنائس والقديسين

وإننا لنسمع كل يوم عن الألوف التى تندفع حول نوابغ الصور المتحركة للظفر بتوقيع بطاقة أو صورة شمسية ، كما نسمع بالألوف التى تندفع من أجل هذا حول أبطال الألعاب الرياضية وأبطال السياحة والطيران وأشباههم من أصحاب الشهرة فى كل ميدان يتصل بالجماهير . أما العلماء والأدباء فمن نبغ منهم واشتهر فليس نصيبه من الاعجاب والجزاء بأقل من نصيب أمثاله قبل أجيال وأحقاب ، ومن لم ينبغ ولم يشتهر فله قرناء يماثلونه بؤسا وغبنا وشظفا فى أقرب العصور وأبعد العصور

لا ، بل نحن لا نستثنى أصحاب المكانة الدينية على اطلاق الاستثناء ، فما يربحه الدعاة باسم الدين اليوم لا يقل عما كانوا يربحونه فى الأيام الخالية ؛ والثقة بأغاخان لليوم وهو يعيش فى أوربا عيشة المترفين المتطلقين لا تقل عن الثقة بإمام زاهد عاكف على العبادة كان يعيش فى صومعته قبل عصر الكشف والاختراع

ولم ننفرد نحن باكبار البعيد فى الزمان أو المكان وترجيحه على أنداده وقرنائه الذين نراهم رأى العين ونعرفهم بالمصاحبة واللقاء ، فقديما كانوا يقولون إن زامر الحى لا يحظى باطراب ، وقديما كان الجاحظ يكتب الرسائل وينحلها الكتاب الأسبقين ليحظى بالاصغاء والتقريظ

وأحسب أن ايثار الماضى على هذا النمط له علة شائعة بل علل شائعات لا تنحصر فى وقت ولا يخلو منها قبيل

فالماضى يشبه المثل الأعلى لأنه غائب عن الانظار كالمثل الأعلى فى هالاته وخيالاته ، أما الحاضر فهو كالواقع المحسوس الذى نحب أبداً أن نتجاوزه ونطمح إلى ما وراءه

ولقد كان المشركون ينكرون النبى عليه السلام ولا ينكرون منه إلا أنه « يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . . ترى هل كان الأنبياء فيما مضى لا يأكلون طعاما ولا يمشون فى سوق ؟ كلا بل كانوا يأكلون ويمشون ، ولكنهم بعدوا واحتجبوا فخيل إلى غير معاصريهم أنهم مختلفون

ومن العلل التى تجنح ببعضهم إلى تهيب « السلف الصالح » أننا ننظر إليهم كما ننظر إلى الآباء والأجداد ، كأنهم كبار ونحن صغار ، لأنهم ولدوا قبلنا بمائة عام أو مئات من الأعوام ، وينسى المتهيبون أن السابقين كانوا أطفالا فى سن الطفولة وأننا سنصبح شيوخا مع السنين أو نربى فى الشيخوخة على أولئك الآباء والأجداد

ومن تلك العلل ما أومأنا اليه فى مقالنا الأول عن سهو الذين يقارنون بين الماضى والحاضر فيجعلونهما كفتين تتساويان فى نطاق الزمان والمكان ، مع أن الحاضر زمن واحد والماضى حاضر قد تكرر عشرات ومئات

وعندنا نحن الوارثين للثقافة العربية سببان آخران لا يلحظان بهذه القوة فى جميع الشعوب : أحدهما أن العربى يعتز بالأنساب وينوط الفخار كله بماضيه ، لأنه سلالة من القبائل التى تغلب فيها العصبية وترسخ فيها الاصول

والثانى أن الماضى أقرب إلى منشأ الدين ، فيخيل الينا أن الأقدم فالأقدم هو الأصلح فالأصلح والأعلم فالأعلم ، وإن لم تدلنا الدلائل على اطراد هذا القياس

* * *

تلك الأسباب كلها خليقة أن تضاعف احترامنا كلما عمدنا إلى الموازنة بين حاضر وغائب وقريب وبعيد . فهى صنجة توخذ من كفة الأقدمين وتضاف الى كفة المحدثين فى ميزان الانصاف . ومما لا شك فيه أن ملكات النبوغ لا تقل فى عصرنا بل هى أحجى أن تزيد وتنشط ، بل هى قد زادت ونشطت فعلا باتساع مجال السعى والمنافسة والتفكير والاستنباط ؛ ومما لا شك فيه أن الاقدمين لم ينظروا الى معاصريهم إلا كما ننظر نحن إلى معاصرينا ، وأنهم لم يشعروا قط بتلك المهابة التى نضفيها عليهم الآن ولا بذلك الترجيح الذى نمحضهم إياه . أما أنهم كانوا يرون نوابغهم وأبطالهم